الفصل الثاني عشر

الكذب

إذا نشأ الطفل في بيئةٍ تُقدِّر الحق وتلتزم الصدق،لا يتخلص فيها الآباء بانتحال المعاذير،وفي أسرةٍ تطبق الأمانة والصدق بقدر دعوتها إليهما،يكون من الطبيعي في مثل هذه الظروف أنْ يلتزم الطفل حدود الصدق المرعية،وقواعد الأمانة المرجوة.

أمَّا إذا سمع الطفل أحد أبويه يتشكَّك في صدق الآخر،أو إذا ما شاهد أُمَّهُ تتخلص من واجباتها ومسؤولياتها بادعاء المرض،فليس هناك ما يدعو إلي الظن بأنَّ الطفل في مثل هذه الظروف سوف يعرف عن كثب قيمة الصدق.وعي ذلك فإنَّ صفة الكذب صفة أو سلوك سوف يتعلَّمه الطفل كما يتعلَّم الصدق،لأنَّ الكذب ليس صفة فطرية،أو سلوكاً موروثاً.

والكذب في العادة، عَرَض ظاهري للدوافع والقوي النفسيَّة التي تعتمل في نفس الفرد وتجيش بصدره،سواء أكان طفلاً أم بالغاً.

❁ أنواع الكَذِب وتصنيفاته:

♦ أوَّلاً: الكَذِب الخيالي أو التلفيقي:

ينبغي أن يُشفق الآباء من عجز أبنائهم عن التزام الدِّقة والصدِّق في سرد الوقائع،وذلك لأنَّ الطفل يمرُّ بفترةٍ طويلةٍ،قبل أن يستطيع التَّفْرِقة بين الحقيقة والخيال.

ففي مرحلة الطفولة المبكِّرة،يُلاحظ فيها قوَّة خيال الطفل،حيث يطغي خياله علي الحقيقة ويري في القصَّص الخياليَّة واقعاً،ويكون خياله خصباً فيَّاضاً يملأ عن طريقه فجوات كلامه أو حديثه مع الآخرين.ولذلك ننصح بالاهتمام بالقصَّص التربويَّة وعدم المبالغة في القصَّص الخياليَّة - رغم أهميتها في إثراء خيال الطفل وخصوبة تفكيره - حتى لا يؤدي ذلك إلي تشويه الحقائق المُحيطة به.

وكثيراً ما يلجأ الطفل في سبيل المفاخرة بقيمته الذَّاتية في بعض المواقف التي قام بدور فيها،وكثيراً ما يكون للأقاصيص التي ينسجها أساس واهٍ أو هش من الواقع،بيد أنَّها كثيراً ما تكون أيضاً أمور لفَّقها الطفل؛حتى لا يتجاهل الناس أمره تجاهُلاً مُطْلقاً.ويغلب أن يصدر هذا النوع من التلفيقات من البنت أو الولد الذي تضيق به الحيلة،ولكنه رغم ذلك يتوق ويرغب إلي شئ يستحق الذِّكر والتنويه،وهكذا ينتقل أولئك الأطفال علي أجنحة الخيال،فمن حياة مُفعمَّة بالخيبة والفشل،إلي حياةٍ مليئةٍ بالنشوة والظفر،فليست مثل هذه الأخيلة في الواقع كَذِباً بل هي أوهام أو رغبات مكبوتة لم تتحقَّق.

ويقوم علاج عادة « التلفيق » هذه علي توجيه انتباه الطفل إلي الأمانة فيما يقومون به،فمثل أولئك الأطفال في حاجةٍ شديدةٍ إلي التشجيع والتوجيه،لذا..ينبغي أن توجه جهودهم نحو القيام بالأمور التي تقع في نطاق قدرتهم،حتى تُكلَّل جهودهم بالنجاح.

أمَّا التلفيقات والأوهام التي ليس لها أساس من الواقع،والتي لا تؤدي إلي غاية نافعة - أي تلك التي تدعي بـ «أحلام اليقظة» Daydream - فليس من اللازم أو المرغوب فيه دفع الطفل إلي التسليم بأنَّ أحلامه ليس لها ظلٌّ من الحقيقة؛فهذه الأحلام ليس فيها ما يُهدِّد

سلامة الطفل العقليَّة إلَّا إذا أصبحت غاية في حدِّ ذاتها،وأدَّت بالطفل بعيداً عن حقائق الحياة،واستغرقت من كوامن نفسه.ومن ثمَّ لا ينبغي أن نضيق ذرعاً بتوهُّمات الأطفال،فكثيراً ما يكون في حياة الصَّغير معني خاصّ،فإذا لم يتحمَّل الآباء الإنصات إلي ما يبدو لهم أمراً تلفهاً صغيراً يصدر عن الطفل،فإن الفرصة لن تَسْنح لهم بالوقوف علي ما يَعْرِضُ لحياته من مشكلات جدِّية خطيرة مستقبلاً.ومهمَّة الآباء تتطلَّب منهم أن يُقدِّموا العون لأبنائهم كي يتعرَّفوا علي الحقيقة ويدركوا قيمتها.

♦ **ثانياً: الكَذِب الالتباسي:**

وهذا النوع من الكَذِب لا يدلُّ علي انحراف سلوكي أو مرضي لدي الطفل،بل يحدث نتيجة لتداخل الخيال مع الواقع لديه؛بحيث لا يستطيع أنْ يُفرِّق بينهما،فقد يستمع إلي قصَّةٍ خياليَّةٍ أو واقعيَّةٍ تُثير مشاعره،وبعد أيام يتقمَّص أحداث القصَّة في نفسه أو في غيره.

والطفل في حالة الكَذِب الالتباسي يلجأ إلي الكَذِب دون قصد؛فذاكرته تعجز من أن تعي حادثة مُعيَّنة بتفاصيلها،فيضطر دون أن يدري إلي أن يُحرِّف بعض الأحداث، ويضيف أخري من نسج خياله حتى تبدو الحادثة مستساغة لعقله الصغير ومنطقه المحدود.

♦ **ثالثاً: الكَذِب الادعائي:**

وفي هذا النوع من الكَذِب يلجأ إليه الأطفال،الذين يُعانون الشعور بـ «النَّقْص أو الدُّونيَّة» Feelings of inferiority،لتغطيته بالمبالغة؛بهدف الحصول علي مركز مرموق وسط الجماعة، فالطفل الذي لا يمتلك لُعباً كغيره من الأطفال يدَّعي أنَّه يمتلك منها الكثير، وقد يصل به الأمر إلي أن يتخيَّل شكلها وحجمها وطريقة تشغيلها للتَّباهي أمام أقرانه.

وهذا النوع من الكَذِب شائعٌ بين أغلب الأطفال،ولا ضرر منه فهو لا يؤذي أحداً،ولكن علي الآباء أنْ يحاولوا علاج مثل هذه الحالة بشيءٍ من توضيح الحقائق،ومحاولة إشباع الحاجات النفسيَّة للأطفال،مع ضرورة توفير احتياجاتهم من اللُّعب والأدوات.

وقد يلجأ الطفل إلي الكَذِب الادعائي لاستدرار العطف عن طريق التَّمارُض،وهذا يحدث عند الأطفال الذين لم ينالوا درجة مناسبة من الحُبِّ والرعاية من الوالدين في طفولتهم.

وأحياناً يلجأ الطفل إلي هذا الكَذِب فيَتهمون الغير باضطهادهم أو التنكيل بهم،فعندما يعود الطفل من مدرسته يدَّعي في حضور والديه أنَّ المُعلِّم أو المُعلِّمة قد أوسعه ضَرباً،أو منع عنه مكافأة كان يستحقَّها،ويعود السبب في ذلك إلي أنَّ الطفل يُحاول استدرار عطف والديه،أو قد يحاول أن يجد لنفسه مُبَرِّراً لفشله أو عجزه الدراسي،حتى يمنع لوم وتقريع الأسرة له.

وهذا النوع من الكَذِب يجب الإسراع في علاجه؛لأنَّ أي إهمالٍ أو تقاعُس سيجعل من الطفل مُبالغاً ومُختلقاً المبرِّرات الواهية والأقاويل الزائفة،ممَّا يؤثِّر بالسَّلب علي صحَّته النفسيَّة ومكانته الاجتماعيَّة.

♦ **رابعاً: الكَذِب بغرض الاستحواذ:**

يُعامل بعض الأطفال معاملة قاسية يشوبها النَّبذ والإهمال،فتنعكس هذه المعاملة عليهم؛فالأطفال الذين يُعانون من رقابة الوالدين الشديدة ومحاولة التحقُّق من كُلِّ عبارة يذكرونها،وقد أخذوا في التضييق عليهم،هؤلاء يلجأون إلي نوعٍ آخر من الكَذِب؛بغرض الاستحواذ علي الأشياء وعلي العواطف أيضاً.إنَّ الطفل عندما يفقد الثِّقة في بيئته،يشعر بالحاجة إلي امتلاك أكبر قدر ممكن من الأشياء،وهو يكْذِب في سبيل تحقيق ذلك.

وإنَّنا نوجه إلي الآباء نصيحة خالصة بأن يوفِّروا لأبنائهم جوّاً من الثِّقة والاطمئنان، وأن تكون البيئة الأسريَّة التي يعيشون فيها مصدر فخرهم وثقتهم،والابتعاد عن النبذ والإهمال والرقابة الشديدة الصارمة،وكذلك نحذِّر من التدخُّل المباشر في حياة الأطفال في كُلِّ أمورهم (الكبير منها والصَّغير) إلَّا بالقدر الضروري والمعقول.

♦ **خامساً: الكَذِب الانتقامي :**

قد يكْذِبُ الطفل لإسقاط اللَّوم علي أطفالٍ آخرين،والكَذِب الانتقامي يرتبط بضعف «الأنا العُليا » The Super Ego،التي تقوم بوظيفة الرقابة علي السلوك.

ويُعدُّ هذا النوع من الكَذِب من أخطر أنواع الكَذِب علي الصحَّة النفسيَّة للطفل؛لأنَّه كذبٌ ينمُّ عن كراهيةٍ وحقدٍ.وفي هذا الكَذِب يُفكِّر الطفل كثيراً،قبل أن يُقْدِم علي هذه الخُطْوَة،بل يتدبَّر مُسبَقّاً حبكته الانتقامية هذه بقصد إلحاق الضرر بمَنْ يكرهه،وهذا السلوك يكون مصحوباً ـ في أغلب الأحوال ـ بالتوتُّر والقهر والإحساس بالألم.

وهذا النوع من الكَذِب يكون أكثر انتشاراً بين أطفال المدارس الابتدائية نتيجة للغيرة أو الحقد؛فيحدث أن يشكو الطفل قرينه لأنَّه قد أتلف كتابه،فيهمّ المُعلِّم أو المُعلِّمة بعقاب الطفل المشكو منه،فيجد الطفل الشَّاكي في ذلك راحة وسعادة،وهذا الكَذِب يجد له رواجاً ومتنفساً،إذا وجد الطفل من المُعلِّم أو المُعلِّمة استجابة لشكايته وميلاً منه إلي العقاب دون أن يتم التحقُّق.

ومن هنا يتحتَّم علي الآباء والمُعلِّمين أن يقابلوا مثل هذه الشكاوي والاتهامات بالحذر الشديد والتحقُّق الدقيق،وكذلك يجب عليهم أن يهتموا بهؤلاء الصِّغار الذين يندفعون إلي اقتراف هذا الكَذِب الانتقامي بأن يعتنوا بهم ويقوِّموهم،حتى يتخلَّصوا منه؛لأنَّ الاعتياد علي مثل هذا النوع من الكَذِب يؤدي إلي اعتلال صحَّتهم النفسيَّة.

♦ **سادساً: الكَذِب الدفاعي أو الوقائي :**

إذا كان العقاب مطرداً قاسياً لا يتناسب،وما يتطلَّبه الموقف أدَّي إلي اتخاذ الكَذِب وسيلة للوقاية،ونؤكِّد أنَّ العقاب نفسه كثيراً مَا لا يُحقِّقُ الغرض من توقيعه،فإنَّ كثيراً من

الأطفال يندفعون إلي استخدام الكَذِب كسلاح غريزي،وقاية لأنفسهم من أساليب العقاب،خاصَّة إذا كان القِصَاص جائراً لا عدل فيه.

كما يلجأ بعض الأطفال في الأسر التي تتناقض فيها وسائل التربية ـ كأن يكون الأبُ شديد القسوة وتكون الأمُّ شديدة الحنو ـ في هذه الحالة وما يُشابهها نجد أنَّ الطفل يكْذِب؛لكي يفلت من عقابٍ ينتظره،فيلصق الاتهام ببريءٍ قد يكون أخوه أو صديقه؛حتى ينال العقاب عوضاً عنه.

والكَذِب الدفَّاعي أو الوقائي هو أكثر أنواع الكَذِب شيوعاً بين الأطفال،وقد يُذْمنُ الأطفال هذا النوع من الكَذِب وبالأخصِّ مَنْ تعتريهم نوبات القلق والتوتُّر.ونؤكِّد أنَّه كُلَّما ازداد الخوف من العقاب،ازداد نزوع الأطفال إلي الكَذِب الدفَّاعي؛لذلك تُحذِّر الآباء ورجال التعليم،الذين يلجأون إلي عقاب الأطفال بالوسائل المؤلمة (كالصَّفع أو الركْل أو الضَّرب) بأن يتجنَّبوا ذلك ويكفوا عن تلك الوسائل؛حتى لا يدفعوا هؤلاء الصِّغار إلي هذا النوع من الكَذِب.

وإذا كان الكَذِب الانتقامي يرتبط بالألم والتوتُّر..فإنَّ الكَذِب الدفَّاعي يرتبطُ غالباً بالخوف والقلق،ويُصاحبه أيضاً عات الغشِّ والتمويه والخداع والتخطيط المُسَبَّق له والتدبير المُحكم؛حتى يبدو هذا الكَذِب مُقْنعاً بلا افتعال أو ارتجال.

هذا..وقد أجمعت الدراسات علي أن حوالي 70٪ من أنواع سلوك الأطفال الذي يتَّصف بالكَذِب،يرجع إلي الخوف من العقاب،وعدم استحسان البالغين وقبولهم لسلوكهم،وأنَّ 20٪ منها ترجع إلي أغراض الغشّ والخداع والتمويه،وأنَّ 10٪ منها ترجع إلي ميل الأطفال لأحلام اليقظة والخيال والالتباس.

♦ سابعاً: الكَذِب الأناني :

والكَذِب الأناني نوعٌ من أنواع الكَذِب يلجأ إليه الطفل ليُحقِّق منفعة لنفسه،أو ليمنع نفعاً لأخيه أو صديقه،وهذا النوع من الكَذِب يرتبط بدرجة النموّ الخُلقي لدي الطفل،ونوع النموذج أو القدوة التي كانت متاحة أمامه ممثَّلة في الوالدين.

ويكْذِب الطفل؛لأنَّه لم يقوَّم منذ البداية علي أن يُحبّ للآخرين ما يُحبّ لنفسه،وأنَّ النفع الذي يعود عليه إنَّما يرتبط أشدّ الارتباط بنفع الآخرين أيضاً،وأنَّ الحياة التي نعيشها تعتمد علي محورين مهمين،هما:الأخذ والعطاء.

أمَّا إذا كذِب الطفل ليمنع نفعاً للآخرين،فهو الكَذِب الذي يُهدِّد أمنه وصحَّته النفسيَّة،لأنَّ الأنانية ترتبط بالكراهيَّة وبالعداء تجاه الآخرين،فالطفل يكذب ليُسقط عن أخيه أو صديقه صفة الامتياز والتفوُّق،ثُمَّ يدعيها لنفسه طمعاً في تقدير أو ثناء أو إثابة،وهو ما يجب أن يتنبَّه إلي الآباء والمُعلِّمون لتوضيخ مثل هذه الأمور للأطفال؛حتى يقلعوا عن هذا الكَذِب بلا عنفٍ أو إكراهٍ،مع الاهتمام بتوفير الجوّ الأسري الصالح.

♦ ثامناً: الكَذِب لمقاومة القسوة والسُلطة :

كثيرا ما يكْذِب الأطفال لأنَّهم يعانون من قسوة الوالدين أو المدرسة،والكَذِب سلاحٌ يستخدمه الأطفال لمجرَّد الإحساس الممتع،نتيجة التغلُّب علي مقاومة السُلطة الصارمة،إنَّه إحساس بالانتصار رغم كُلّ القيود؛فالطفل بدلاً من أن يذهب إلي المدرسة يسير في الطرقات العامَّة،ويرتاد الحدائق والمتنزهات،وعند اقتراب نهاية اليوم الدراسي يهمُّ عائداً إلي المنزل مُدَّعياً أنَّه قضي في المدرسة يوماً شاقاً ومرهقاً !!

والطفل في مثل هذه الحالات من الكَذِب يبدو رقيقاً كالملاك،يستسلم ـ ظاهرياً ـ لأوامر ونواهي السُلطة الوالدية،فهو يحاول أن ينفِّذ أمام أعينهم كُلّ ما يطلبانه ويأمرانه،ولكن حينما يتحرَّر من هذه السُلطة،يفعل ما يَحْلو له محاولاً استنشاق عبير الحُرِّيَّة المسْلُوب؛لذلك لزم التنويه بضرورة التخفيف ـ قدر المستطاع ـ من حدَّة القيود والسُلطة الأبويَّة والمدرسيَّة الصارمة،وأن يطَّلع الطفل مُسبَّقاً علي قواعد ومعايير السلوك المرجوَّة بلا قسر أو عنف،وإذا طُلب منه أداء سلوك مُعيَّن أو تنفيذ واجب مُحدَّد لا يكون بالأوامر والنواهي الصَّارمة،بل بالإقناع بعد توضيح الأمور بصدقٍ دون استخفاف؛فينفِّذ الطفل كُلّ ما يُطلب منه،لا عن خوف ورهبة بل عن اقتناع وحُبّ.

❁ كيف نقي أطفالنا من داء الكَذِب ؟

* يجب توضيح الأسُس التي تقوم عليها العلاقات بين الأفراد بحيث يُدرك الطفل الحدود الصحيحة للحقوق والواجبات حتى لا يلجأ إلي الكَذِب الذي يحاول فيه ـ بحسن نيَّة ـ أن يُساعد الآخرين.

* التسامح مع بعض الأطفال في بعض المواقف،مع شرح أخطائهم وإعطائهم الفرصة؛لتصحيح ما يقعون فيه من أخطاء غير مرغوب فيها.

* ألَّا يُسمح للطفل بأن يفلت بكْذِبه،بل يجب أن نعلِّمه أنَّنا أدركنا سلوكه،ونعطيه الفرصة لتجنُّب الكَذِب مرَّة أخري؛حتى لا يتدعَّم سلوك الكَذِب لديه كوسيلةٍ لتحقيق رغباته، أو للتخلُّص من المآزق التي قد يقع فيها.

* عدم اللجوء إلي العقاب الشديد؛لأنَّ الخوف من العقاب من أهم الدوافع التي تجعل الطفل يلجأ إلي الكَذِب،وأن يكون العقاب ـ إذا حدث ـ عقاباً معتدلاً يتناسب مع نوع الخطأ، وأن يعرف الطفل الأسباب التي أدَّت إلي اتخاذ القرار بعقابه.

* لابدّ من استخدام الأسلوب العلمي في حلِّ المشكلة،وذلك بالبحث أوَّلاً عن أسبابها ودوافعها، ووضع العلاج المناسب لكُلّ حالة علي حدة،فعلاج الكَذِب الدفَّاعي يختلف بطبيعة الحال عن علاج الكَذِب الانتقامي،مع مراعاة أن كُلّ حالةٌ قائمةٌ بذاتها،فأسلوب العلاج الذي ينجح مع طفل قد لا ينجح مع طفل آخر.

* لابدّ أن نعي ونتيَّقن أنَّه لا فائدة ترجي من محاولة علاج الكَذِب،بالعقاب أو الزَّجر أو التهديد؛ لأنَّ هذه الأساليب لن تردع الطفل عن الإتيان بالكَذِب،بل قد تتسبَّب في ظهور أعراض سلبيَّة أخري،فالعقاب يُزيد من تعقيد المشكلة بدلاً من انفراجها وإمكانية حلها.

* يجب أن نساعد الطفل علي أن يعيش في بيئةٍ توفر له استجابات طيبة بمعني أن تشبع حاجاته النفسيَّة المُلِحَّة والضرورية من حُبٍّ وحنانٍ وأمنٍ وتقبُّلٍ،لأنَّ ذلك يُساعده علي الصدق والصراحة والوضوح.

* الطفل يُقلِّد مَنْ حوله ويتقمَّص سلوك الكبار منهم،ولذلك فعلي الآباء والمُعلِّمين أن يدركوا أنَّهم القدوة والمثل الأعلى والنموذج؛فالآباء الذين يدفعون أبناءهم إلي الكَذِب إنَّما يدفعونهم إلي تقليد ومُحاكاة سلوكهم.

* يجب أن يشعر الطفل بأنَّه يعيش في بيئة مرنةٍ ومتسامحةٍ،فتعودِّه دائماً علي المحبَّة والتسامح، وأن نَحول دون تنمية الاتجاهات السلوكيَّة التي تدعم لديه غرائز الكراهيَّة والحقد والانتقام.

* تجنيب الطفل المواقف التي تُشجِّعه علي الكَذِب وتضطره للدفاع عن نفسه،فإذا اعترف الطفل بأنَّه كَذِب لا نعاقبه البتَّة؛لأنَّ العقاب يُشجِّعه علي الكَذِب ولا يُشعره بالأمن والطمأنينة نحونا،بل يجب أن نبصِّره بأهمية الصدق ومغبة الكَذِب.

* يجب علي الآباء أن يكونوا أوفياء إذا قطعوا عهداً أو وعداً مع أطفالهم،لأنَّ الأطفال قد يُصابون بصَّدمةٍ قوِّيةٍ،إذا خالف الآباء وعودهم،ومن ثمَّ فسوف يتحلل الأطفال من الالتزام بالصدق.